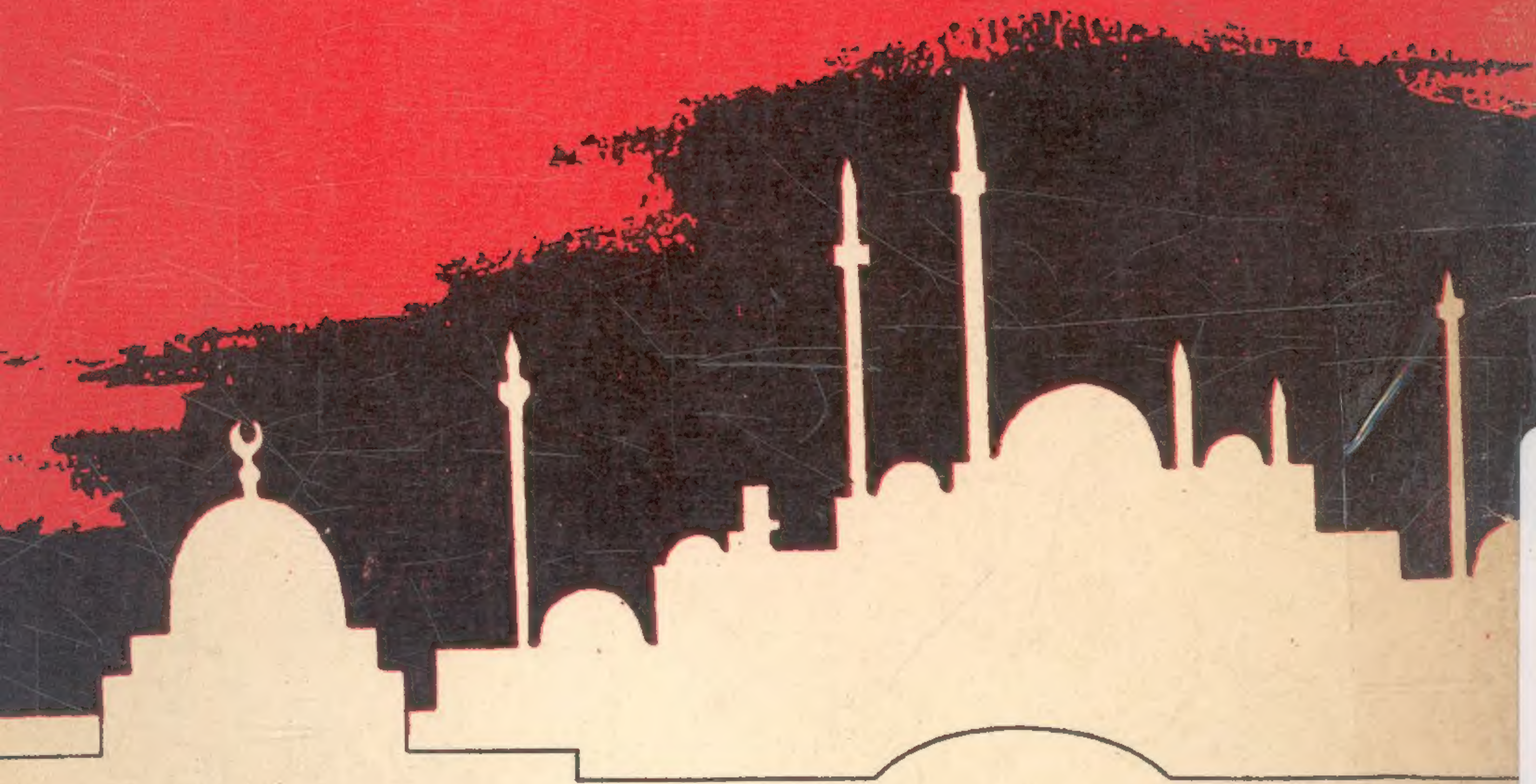


كتب قومية
مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر

na³/₁

جمال عبد الناصر



فلسفة الثورة

مكتبة قومية
مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر

فلسفة الثورة

الدار القومية للطباعة والنشر

مقدمة

إن هذه الخواطر ليست محاولة لتأليف كتاب ...
ولا هي محاولة لشرح أهداف نورة ٢٣ يوليو وحوادثها ...
إنما هي شيء آخر تماما ..
إنها أشبه ما تكون بدورية استكشاف ...
إنها محاولة لاستكشاف نفوسنا لكي نعرف من نحن
وما دورنا في تاريخ مصر المتصل الحلقات ...
ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا في الماضي
والحاضر لكي نعرف في أى طريق نسير ...
ومحاولة لاستكشاف أهدافنا والطاقة التي يجب أن
نحشد لها لنحقق هذه الأهداف ...
ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا ، لنعرف أننا
لا نعيش في جزيرة الماء من جميع الجهات ...
هذا هو الذى قصدت اليه ...
مجرد داورية استكشاف في الميدان الذى نحارب فيه في
معركتنا الكبرى من أجل تحرير الوطن من كل الاغلال ...
جمال عبد الناصر

الجزء الأول

ليست فلسفة - محاولات لم تتم - ليست مجرد تمرد - كنا
في فلسطين وإحلامنا في مصر - أحمد عيد العزيز قبل أن يموت -
كروم من إسرائيل - أيام التلمذة - الحقيقة والفراغ - لماذا كان
لا بد أن يتحرك الجيش - الصورة الكاملة - الطبيعة والجموع -
أقصى أمانى - نموذج من أعضاء مجلس الثورة - أزمت نفسية -
ثورتان في وقت واحد - لكيلا يقع تصادم على الطريق *

قبل أن أمضى في هذا الحديث أريد أن أقف قليلا عند كلمة
« فلسفة » .

إن الكلمة ضخمة وكبيرة ...

وأنا أحس وأنا واقف حيالها أنني أمام عالم واسع ليس له
حدود ، وأشعر في نفسي برهبة خفية تمنعني من أن أخوض في بحر
ليس له قاع ، ولا أرى له على البعد ، من الشاطئ الذي أقف
فيه شاطئاً آخر انتهى إليه .

والحق أنني أريد أن أتجنب كلمة فلسفة في هذا الذي سأقوله ،
ثم أنا أظن أنه من الصعب على أن اتحدث على فلسفة الثورة .
من الصعب لسببين :

أولهما : إن الحديث عن فلسفة ثورة ٢٣ يوليو يلزمه أساتذة
يتعمقون في البحث عن جذورها الضاربة في اعماق تاريخ
شعبنا .

وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء
وكذلك ليس فيها مفاجآت تقفز إلى الوجود دون مقدمات .

إن كفاح أي شعب ، جيلاً بعد جيل ، بناء يرتفع حجراً فوق
حجر ..

وكما أن كل حجر في البناء يتخذ من الحجر الذي تحته قاعدة
يرتكز عليها ، كذلك الأحداث في قصص كفاح الشعوب .

كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه ، وهو في نفس الوقت
مقدمة لحدث مازال في ضمير الغيب ..

واست أريد أن أدعى لنفسي مقعد أستاذ التاريخ ..
ذلك آخر ما يجرى به خيالي .

ومع ذلك فلوحاولت محاولة تلميذ مبتدئ ، في دراسة قصة
كفاح شعبنا ، فاني سوف أقول مثلا أن ثورة ٢٣ يوليو هي تحقيق
للأمل الذي راود شعب مصر ، منذ بدأ في العصر الحديث يفكر
في أن يكون حكمه بأيدي أبنائه ، وفي أن تكون له نفسه الكلمة
العليا في مصيره ...

لقد قام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذي تمناه ، يوم تزعم
السيد عمر مكرم حركة تنصيب محمد علي واليا على مصر ، باسم
شعبها ...

وقام بمحاولات لم تحقق له الأمل الذي تمناه ، يوم حاول
عرابي أن يطالب بالدستور ...

وقام بمحاولات متعددة ، لم تحقق له الأمل الذي تمناه في
فترة الغليان الفكري التي عاشها بين الثورة العرابية وثورة سنة
١٩١٩ .

وكانت هذه الثورة الأخيرة — ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد
زغلول — محاولة أخرى لم تحقق له الأمل الذي تمناه .

وليس صحيحا أن ثورة ٢٣ يوليو قامت بسبب النتائج التي أسفرت عنها حرب فلسطين ، وليس صحيحا كذلك أنها قامت بسبب الأسلحة الفاسدة التي راح ضحيتها جنود وضباط ، وأبعد من ذلك عن الصحة ما يقال أن السبب كان أزمة انتخابات نادي ضباط الجيش

انما الأمر في رأيي كان أبعد من هذا وأعمق أغوارا .

ولو كان ضباط الجيش حاولوا ان يثوروا لأنفسهم لانه قد غرر بهم في فلسطين ، أو لأن الأسلحة الفاسدة أرهقت أعصابهم ، أو لأن اعتداء وقع على كرامتهم في انتخابات نادي ضباط الجيش ، لما كان الأمر يستحق أن يكون ثورة ، ولكان أقرب الأشياء الى وصفه أنه مجرد تمرد ، حتى وان كانت الأسباب التي أدت اليه منصفة عادلة في حد ذاتها .

لقد كانت هذه كلها أسبابا عارضة ...

وربما كان أكبر تأثير لها أنها كانت تستحثنا على الاسراع في طريق الثورة ولكننا كنا من غيرها نسير على هذا الطريق .

وأنا أحاول اليوم بعد كل ما مر بي من أحداث ، وبعد سنوات طويلة من بدء التفكير في الثورة ، أن أعود بذاكرتي وأتعقب اليوم الأول الذي اكتشفت فيه بذورها في نفسي .

ان هذا اليوم أبعد في حياتي من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٥١ ، أيام ابتداء أزمة نادي الضباط ، ففي ذلك الوقت كان تنظيم

الضباط الأحرار قائما يباشر عمله ونشاطه ، بل أنا لا أغالى إذا قلت أن أزمة انتخابات النادى أثارتها أكثر من أى شىء آخر نشاط الضباط الأحرار ، فقد شئنا فى ذلك الوقت أن ندخل معركة نجرب فيها قوتنا على التكتل وعلى التنظيم .

وهذا اليوم - فى حياتى أيضا - أبعد من بدء فضيحة الأسلحة الفاسدة، فقد كان تنظيم الضباط الأحرار موجودا قبلها، وكانت منشوراتهم أول نذير يتلك المأساة ، وكان نشاطهم وراء الضجة التى قامت حول الأسلحة الفاسدة .

بل ان هذا اليوم فى حياتى أبعد من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨ ، ذلك اليوم الذى كان بداية حياتى فى حرب فلسطين .



وحين أحاول الآن أن أستعرض تفاصيل تجاربنا فى فلسطين أجد شيئا غريبا .

فقد كنا نحارب فى فلسطين ، ولكن أحلامنا كلها كانت فى قصر .

كان رصاصنا يتجه الى العدو الرابض أمامنا فى خنادق ، ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذى تركناه للذئاب اترعاه ...

وفى فلسطين كانت خلايا الضباط الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع فى الخنادق والمراكز .

في فلسطين جاءني صلاح سالم وذكريا محيي الدين، واخترقا
الحصار الى الفالوجة ، وجلسنا في الحصار لا نعرف له نتيجة
ولانهاية ، وكان حديثنا الشاغل وطننا الذي يتعين علينا أن نحاول
انقاذه ..

وفي فلسطين جلس بجوارى مرة كمال الدين حسين وقال لي
وهو ساهم الفكر شارد النظرات :

— هل تعلم ماذا قال لي أحمد عيد العزيز قبل أن يموت ؟
قلت :

— ماذا قال ...؟

وقال كمال الدين حسين وفي صوته نبرة عميقة وفي عيونه
انظرة أعمق :

— لقد قال لي : اسمع يا كمال ، ان ميدان الجهاد الأكبر هو
في مصر ...

ولم ألتق في فلسطين بالأصدقاء الذين شاركوني في العمل من
أجل مصر ، وانما التقيت أيضا بالأفكار التي أنارت أمامي السبيل
وأنا أذكر أيام كنت أجلس في الخنادق وأسرح بذهني الى
مشاكلنا ...

كانت الفالوجة محاصرة ، وكان تركيز العدو عليها ضرباً
بالمدافع والطيران تركيزاً هائلاً مروعاً .

وكثيراً ما قلت لنفسي :

« ها نحن هنا في هذه الجحور محاصرين ، لقد غرر بنا،دفعنا
الى معركة لم نعد لها ، لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات
وشهوات ، وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح » .

وحين كنت أصل الى هذا الحد من تفكيرى كنت أجده
أخو اطرى تقفز فجأة عبر ميادين القتال ، وعبر الحدود ، الى مصر ،
وأقول لنفسي :

هذا هو وطننا هناك ، انه « الفالوجة » أخرى على نطاق
أكبر ...

ان الذى يحدث لنا هنا صورة من الذى يحدث هناك ...
صورة مصغرة ...

وطننا هو الآخر حاصره المشاكل والأعداء ، وغرر به ...
ودفع الى معركة لم يعد لها ، ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات
وشهوات ، وترك هناك تحت النيران بغير سلاح !



وأكثر من هذا ، لم يكن الأصدقاء هم الذين تحدثوا معى عن
المستقبل وطننا فى فلسطين ولم تكن التجارب هى التى قرعت

أفكارنا بالندّر والاحتمالات عن مصيره ، بل ان الأعداء أيضا لعبوا دورهم في تذكيرنا بالوطن ومشاكله ...

ومنذ أشهر قليلة قرأت مقالات كتبها عنى ضابط اسرائيلى اسمه « يردهان كوهين » ونشرتها له جريدة « جويشن أوبزرفر » وفي هذه المقالات روى الضابط اليهودى كيف التقى بى أثناء مباحثات واتصالات عن الهدنة وقال :

« لقد كان الموضوع الذى يطرقة جمال عبد الناصر معى دائما هو كفاح اسرائيل ضد الانجليز ، وكيف نظمنا حركة مقاومة السرية لهم فى فلسطين وكيف استطعنا ان نجند الرأى العام فى العالم وراءنا فى كفاحنا ضدهم . »

ثم ان هذا اليوم — اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى نفسى — أبعد من حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الذى كتبت بعده خطابا الى صديق قلت له فيه :

« ما العمل بعد أن وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين خاضعين خائعين ؟ »

الحقيقة أنى أعتقد أن الاستعمار يلعب بورقة واحدة فى يده يقصد التهديد فقط ، ولكن لو أنه أحس أن بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة لانسحب كأي امرأة من الماهرات ..

وطبعا هذا حاله أو تلك عادة ..

أما نحن ، أما الجيش ، فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد على الروح المعنوية ، فبعد أن كنت ترى الضباط لا يتكلمون الا عن الفساد واللغو أصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس في سبيل الكرامة ، وأصبحت تراهم وكلهم ندم لأنهم لم يتدخلوا - مع ضعفهم الظاهر - ويردوا للبلاد كرامتها ، ويفسلوها بالدماء ، ولكن غدا لناظره قريب ..

لقد حاول بعضهم بعد الحادث أن يعملوا شيئا بغية الانتقام ، ولكن الوقت كان قد فات ، أما القلوب فكلها فار وأسى ..

والواقع أن هذه الحركة .. أن هذه الطعنة ردت الروح الى بعض الأجساد ، وعرفتهم أن هناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها وكان هذا درسا قاسيا .

وكذلك فإن هذا اليوم أبعد في حياتي من الفوران الذي عشت فيه أيام كنت طالبا أمشي مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة ١٩٢٣ .. وقد عاد الدستور بالفعل - في سنة ١٩٣٥ .. وأيام كنت أسعى مع وفود الطلبة ، الى بيوت الزعماء نطلب منهم أن يتحدوا من أجل مصر ، وتألفت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦ بالفعل على أثر هذه الجهود .

وأذكر أنني في فترة الفوران هذه كتبت خطابا الى صديق من أصدقائي قلت فيه ، وكان تاريخه ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥ :

« أخى .. »

خاطبت والدك يوم ٣٠ أغسطس في التليفون وقد سألتك عنك
فأخبرني أنك موجود في المدرسة ..

لذلك عولت على أن أكتب اليك ما كنت سأكلمك فيه تليفونيا
قال الله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .. »
فأين تلك القوة التي نستعد بها لهم ؟.

ان الموقف اليوم دقيق ، ومصر في موقف أدق .. ونحن نكاد
انودع الحياة ونصافح الموت ، فان بناء اليأس عظيم الأركان ، فأين
من يهدم هذا البناء ؟ ..

ثم مضيت في هذا الخطاب الى آخره ..

واذن فمتى كان ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه بذور الثورة
في أعماقي ؟ .. انه بعيد .

فاذا أضيف الى هذا كله ، أن تلك البذور لم تكن كامنة في
أعماقي وحدي ، وانما وجدتها كذلك في أعماق كثيرين غيري هم
الآخرون بدورهم لا يستطيع الواحد منهم أن يتعقب بداية وجودها
داخل كيانه ، لاتضح اذن أن هذه البذور ولدت في أعماقنا حين
ولدنا ، وأنها كانت أملا مكبوتا خلقه في وجداننا جيل سبقنا ..

ولقد استطردت وراء هذا كله لأشرح السبب الأول الذي من
أجله وجدت من الصعب علي أن اتحدث عن فلسفة الثورة وقلت

أن هذا الحديث يلزمه أساتذة يتعمقون في البحث عن جذورها
الضاربة في أعماق تاريخ شعبنا ..

أما السبب الثاني : فهو أنني كنت بنفسى داخل الدوامة العنيفة
للثورة .

والذين يعيشون في أعماق الدوامة قد تخفى عليهم بعض
التفاصيل البعيدة عنها ..

وكذلك كنت بإيماني وعقلي وراء كل ما حدث ، وبنفس
الطريقة التي حدث بها ، واذن فهل أستطيع أن أتجرد من نفسى
حين أتكلم عنه ، وحين أتكلم عن المعانى المستترة وراءه ؟ .

أنا من المؤمنين بأنه لا شئ يمكن أن يعيش فى فراغ ..
حتى الحقيقة لا يمكن أن تعيش فى فراغ ..

والحقيقة الكامنة فى أعماقنا هى : ماتصوره أنه الحقيقة أو
بمعنى أصح : هو الحقيقة مضافا إليها نفوسنا ..

نفوسنا هى الوعاء الذى يعيش فيه كل ما فىنا ، وعلى شكل
هذا الوعاء سوف يتشكل كل ما يدخل فيه ، حتى الحقائق .

وأنا أحاول — بقدر ما أستطيع طاقتى البشرية — أن أمنع
نفسى من أن تغير كثيرا من شكل الحقيقة ، ولكن الى أى حد
سوف يلازمنى التوفيق ؟ .

هذا سؤال ..

وبعده أريد أن أكون منصفاً لنفسي ، ومنصفاً لفلسفة الثورة ،
فأتركها للتاريخ يجمع شكلها في نفسي ، وشكلها في نفوس غيري
وشكلها في الحوادث جميعاً ، ويخرج من هذا كله بالحقيقة كاملة.

واذنّ فما الذي أريد أن أتحدث عنه اذا كنت قد استبعدت
كلمة «فلسفة» ؟ الواقع أن الذي أملكه في هذا الصدد شيان :
أولهما : مشاعر اتخذت شكل الأمل المبهم ، ثم شكل الفكرة
المحددة ، ثم شكل التدبير العملي ، موضع التنفيذ الفعلي في
منتصف ليل ٢٣ يوليو حتى الآن ..

وعن هذه المشاعر والتجارب أريد أن أتحدث ..

لظالما ألج على خواطري سؤال ، هو :

« هل كان يجب أن تقوم ، نحن الجيش ، بالذي قمنا به في

٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ؟ » .

لقد قلت منذ سطور ، ان ثورة ٢٣ يوليو كانت تحقيقاً لأمل
كبير راود شعب مصر ، منذ بدأ العصر الحديث يفكر في أن يكون
حكمه في أيدي أبنائه ، وفي أن تكون له نفس الكلمة العليا في
مصيره ..

واذا كان الأمر كذلك ، ولم يكن الذي حدث يوم ٢٣ يوليو
تمرداً عسكرياً ، وليس ثورة شعبية ، فلماذا قدر للجيش ، دوراً
غيره من القوى ، أن يحقق هذه الثورة

ولقد آمنت بالجندية طولاً عمراً ، والجندية تجعل للجيش واجباً واحداً ، هو أن يموت على حدود وطنه ، فلماذا وجد جيشنا نفسه مضطراً للعمل في عاصمة الوطن ، لاعلى حدوده ؟.

ومرة أخرى ، دعوني أنبه إلى أن الهزيمة في فلسطين ، والأسلحة الفاسدة ، وأزمة نادي الضباط.. لم تكن المنابع الحقيقية التي تدفق منها السيل ، لقد كانت كلها عوامل مساعدة على سرعة التدفق ، ولكنها — كما سبق أن قلت — لا يمكن أبداً أن تكون هي الأصل والأساس..

واذن لماذا وقع على الجيش هذا الواجب ؟.

قلت : ان هذا السؤال طالما ألح على خواطري ..

ألح عليها ونحن في دور الأمل والتفكير والتدبير بعد ٢٣ يوليو .

وألح عليها في مراحل كثيرة من التجربة بعد ٢٣ يوليو .

ولقد كانت أماننا مبررات مختلفة قبل ٢٣ يوليو تشرح لنا لماذا يجب أن نقوم بالذى قمنا به ..

أنا نقول : اذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم به ؟.

وكنا نقول : كنا نحن الشبح الذي يورق به الطاغية أحلام الشعب ، وقد آن لهذا الشبح أن يتحول إلى الطاغية فيبدد أحلامه هو ..

وكنا نقول غير هذا كثيرا ، ولكن الأهم من كل ما كنا نقوله ،
اننا كنا نشعر شعورا يمتد الى أعماق وجودنا بأن هذا الواجب
واجبنا ، واننا اذا لم نقيم به فاننا نكون كأننا قد تخلينا عن أمانة
مقدسة نيط بنا حملها ..



ولكنني أعترف أن الصورة الكاملة لم تتضح في خيالي الا بعد
فترة طويلة من التجربة عقب ٢٣ يوليو ..
وكانت تفاصيل هذه التجربة ، هي بعينها تفاصيل الصورة .
وأنا أشهد أنه مرت على بعد يوم ٢٣ يوليو نوبات اتهمت فيها
نفسى وزملائي وباقي الجيش بالحماسة والجنون الذي صنعناه في
٢٣ يوليو ..

لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة،
وانها لا تنتظر الا طلعة تقتحم أمامها السور ، فتندفع الأمة وراءها
صفوفا متراصة منتظمة تزحف زحفا مقدسا الى الهدف الكبير ..
وكنتم أتصور دورنا على أنه دور طليعة الفدائيين ، وكنتم أظن
أن دورنا هذا لا يستغرق أكثر من بضع ساعات ، ويأتي بعدها
الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير ، بل
قد كان الخيال يشطبي أحيانا فيخيل الى أنني أسمع صليل الصفوف
المتراصة وأسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظم الى الهدف
الكبير ، أسمع هذا كله ويبدو في سمعي من فرط إيماني به حقيقة
مادية ، وليس مجرد تصورات خيال ..

ثم فاجأني الواقع بعد ٢٣ يوليو ..
قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان ، وخلعت
الطاغية ، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة
المنتظمة الى الهدف الكبير ..

وطال انتظارها ..

لقد جاءتها جموع ليس لها آخر .. ولكن ما أبعد الحقيقة عن
الخيال !

كانت الجموع التي جاءت أشياء متفرقة ، وفلولا متناثرة ،
وتعطل الزحف المقدس الى الهدف الكبير ، وبدأت الصورة يومها
قائمة مخيفة تنذر بالخطر .

وساعتها أحسست وقلبي يملؤه الحزن وتقطر منه المראה أنا
مهمة الطليعة لم تنته في هذه الساعة ، وانما من هذه الساعة
بدأت ..

كنا في حاجة الى النظام ، فلم نجد وراءنا الا الفوضى ..
كنا في حاجة الى الاتحاد ، فلم نجد وراءنا الا الخلاف ..
وكنا في حاجة الى العمل ، فلم نجد وراءنا الا الخسوع
والتكاسل ..

ومن هنا وليس من أى شيء آخر ، أخذت الثورة شعارها .

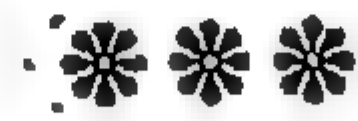
ولم نكن على استعداد ..

وذهبنا نلتبس الرأي من ذوى الرأي ، والخبرة من أصحابها .
ومن سوء حظنا لم نعثر على شيء كثير ..

كل رجل قابلناه لم يكن يهدف الا الى قتل رجل آخر !
وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف الا الى هدم فكرة أخرى !

ولو أطعنا كل ماسمعناه ، لقتلنا جميع الرجال وهدمنا جميع
الأفكار ، ولما كان لنا بعدها مانعمله الا أن نجلس بين الأشلاء
والأنقاض ندب الحظ البائس ونلوم القدر التعس .

وانهالت علينا الشكاوى والعرائض بالألوف ومئات الألوف ،
ولو أن هذه الشكاوى والعرائض كانت تروى لنا حالات تستحق
الانصاف ، أو مظالم يجب أن يعود اليها العسـدل ، لكان الأمر
منطقيا ومفهوما ، ولكن معظم ما كان يرد إلينا لم يزد أو ينقص عن
أن يكون طلبات انتقام .. كأن الثورة قامت لتكون سلاحا فى يد
الحاقدين والمبغضين ! .



ولو أن أحدا سألنى فى تلك الأيام ، ما أعز أمانيك ؟ لقلت له
على الفور :

— أن أسمع مصريا يقول كلمة انصاف فى حق مصرى آخر .

وأنّ أحس أنّ مصر يا قد قُتِح قلبه للصّبح والغفران والحب
لاخوانه المصريين .

وأنّ أرى مصر يا لا يكر من وقته لتسفيه آراء مصرى آخر ..
وكانت هناك بعد ذلك كلمة أناية فردية مستحكمة ..
كانت كلمة «أنا» على كل لسان .

كانت هى الحل لكل مشكلة ، وهى الدواء لكل داء ..
وكثيرا ما كنت أقابل كبراء — أو هكذا تسميهم الصحف —
من كل الاتجاهات والألوان ، وكنت أسأل الواحد منهم عن مشكلة
التمس عنده حلا لها ، فلم أكن أسمع الا «أنا» ..

مشاكل الاقتصاد «هو» وحده يفهمها ، أما الباقون جميعا فهم
في العلم أطفال يحبون .

ومشاكل السياسة «هو» وحده الخبير ، أما الباقون جميعا
فما زالوا في «ألف ياء» لم يتقدموا بعدها حرفا واحدا .

وكنت أقابل الواحد من هؤلاء ، ثم أعود الى زملائي فأقول
لهم فى حبرة :

— لفائدة .. هذا رجل لو سألناه عن مشكلة صيد السمك فى
جزائر هاواى لما وجدنا عنده جوابا الا كلمة «أنا» ..

أذكر مرة كنت أزور فيها إحدى الجامعات .. ودعوت أساتذتها
وجلست معهم أحاول أن أسمع منهم خبرة العلماء .
وتكلم أمامي منهم كثيرون .. وتكلموا طويلاً ..

ومن سوء الحظ أن أحداً منهم لم يقدم لي أفكاراً ، وإنما كل
واحد منهم لم يزد على أن يقدم لي نفسه ، وكفاياته الخلقية وحدها
أعمل المعجزات ، ورمقني كل واحد منهم بنظرة الذي يؤثرني على
نفسه بكنوز الأرض وذخائر الخلود !.

وأذكر أنني لم أتمالك نفسي فقلت بعدها أقول لهم :

« ان كل فرد منا يستطيع في مكانه أن يصنع معجزة ، أنا
واجبه الأول أن أعطي كل جهده لعمله ، ولو أنكم ، كأساتذة
جامعات ، فكرتم في طلبتكم ، وجعلتموهم - كما يجب - عملكم
الأساسي ، لاستطعتم أن تعطونا قوة هائلة لبناء الوطن .

ان كل واحد يجب أن يبقى في مكانه ويبدل فيه كل جهده .

لانتظروا إلينا ، لقد اضطررنا الظروف أن نخرج من أماكننا
لنقوم بواجب مقدس ، ولقد كنا نتمنى لو لم تكن للوطن حاجة
إلينا إلا في صفوف الجيش كجنود محترفين ، واذن لبقينا فيه » .

ولم أشأ ساعتهما أن أضرب لهم المثل من أعضاء مجلس قيادة
الثورة ولم أشأ أن أقول لهم أنهم قبل أن يدعوهم الطاريء الذي
دعاهم إلى الواجب الأكبر كانوا يبذلون في عملهم كل جهدهم .

ولم أشأ أن أقول لهم أن معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا
أساتذة في كلية أركان الحرب ، وهذا دليل امتياز من ناحيتهم
أكجنود محترفين ..

وكذلك لم أشأ أن أقول لهم أن ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة
الثورة ، هم عبد الحكيم عامر ، وصالح سالم ، وكمال الدين
حسين ، رقوا ترقيات استثنائية في ميدان القتال في فلسطين .

لم أشأ أن أقول لهم شيئاً من هذا ، لأنى لا أريد أن أفاخر
الناس بأعضاء مجلس قيادة الثورة وهم أخوتى وزملائى .



وأعترف أن هذا الحال كله سبب لى أزمة نفسية كئيبة .

ولكن التجارب فيما بعد ، وتأمل هذه التجارب واستخلاص
معانيها الحقيقية ، خففت من وقع الأزمة فى نفسى ، وجعلتنى ألتمس
لهذا كله أعذاراً من الواقع عثرت عليها حين اتضحت أمامى - الى
نجد ما - الصورة الكاملة لحالة الوطن ، وأكثر من هذا أعطتنى
للإجابات على السؤال الذى قلت انه طالما راودنى ، وهو :

« هل كان يجب أن نقوم ، نحن الجيش ، بالذى قمنا به فى ٢٣
يوليو؟ »

والجواب : نعم ، ولم يكن هناك مهرب أو مفر !

وأنا الآن أستطيع أن أقول أننا نعيش في ثورتين وليس في ثورة واحدة .

- ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان :

ثورة سياسية يسترد بها حقه في حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش معتد أقام في أرضه دون رضاه .
وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد .

لقد سبقتنا على طريق التقدم البشرى شعوب مرت بالثورتين ولكنها لم تعشهما معا . وإنما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين ، أما نحن فإن التجربة الهائلة التي امتحن بها شعبنا هي أن تعيش الثورتان معا في وقت واحد .



وهذه التجربة الهائلة مبعثها أن لكل من الثورتين ظروف مختلفة تتنافر تنافرا عجيبا ، وتتصادم تصادما مروعا .

وان الثورة السياسية تتطلب لنجاحها وحدة جميع عناصر الأمة وترابطها وتساندها وفكراتها لذاتها في سبيل الوطن كله .

الثورة الاجتماعية ، من أول مظاهرها ، تزلزل القيم وتخلخل العقائد ، تصارع المواطنين مع أنفسهم أفرادا وطبقات ، وتحكم الفساد والشك والكراهية .. والأبائية .

ويتن شقى الرحى هذين ، قدر لنا أن نعيش اليوم في ثورتين!
ثورة تحتم علينا أن نتحد ، ونتحاب ، ونتفالى في الهدف وثورة
تفرض علينا - برغم ارادتنا - أن نتفرق ، وتسودنا البغضاء ، ولا
يفكر كل منا الا في نفسه .

ويتن شقى الرحى هذين - مثلاً - ضاعت ثورة ١٩١٩ ولم
تستطع أن تحقق النتائج التى كان يجب أن تحققها .

الصفوف التى تراصت فى سنة ١٩١٩ تواجه الطغيان ، لم
تلبث الا قليلا حتى شغلها الصراع فيما بينها أفرادا وطبقات .

وكانت النتيجة فشلا ذريعا ، فقد زاد الطغيان بعدها تحكما
فيها ، سواء بواسطة قوات الاحتلال السافرة ، أو بصنائع الاحتلال
المقنعة التى كان يتزعمها فى ذلك الوقت السلطان فؤاد وبعدد ابنة
فاروق ، ولم يحصد الشعب الا الشكوك فى نفسه والكراهية
والبغضاء والأحقاد فيما بين أفراد وطبقاته .

وشعب الأمل الذى كان ينتظر أن تحققه ثورة ١٩١٩ .



ولقد قلت شعب الأمل . ولم أقل تلاشى ، ذلك لأن قسوى
المقاومة الطبيعية التى تدفعها الآمال الكبيرة التى تراود شعبنا ،
كانت لا تزال تعمل عملها وتسعد لمحاولة جديدة .

وكان ذلك هو الحال الذى ساد بعد ثورة ١٩١٩ ، والذى
فرض على الجيش أن يكون وحده القوة القادرة على العمل .

كان الموقف يتطلب أن تقوم قوة يقرب ما بين أفرادها أطوار واحد ، يبعد عنهم الى حد ما صراع الأفراد والطبقات، وأن تكون هذه القوة من صميم الشعب ، وأن يكون في استطاعة أفرادها أن يثق بعضهم ببعض ، وأن يكون في يدهم من عناصر القوة المادية ما يكفل لهم عملا شريفا حاسما ، ولم تكن هذه الشروط تنطبق الا على الجيش .

وهكذا لم يكن الجيش — كما قلت — هو الذي حدد دوره في الحوادث ، وانما العكس كان أقرب الى الصحة ، وكانت الحوادث وتطوراتها هي التي حددت للجيش دوره في الصراع الكبير لتحرير الوطن .



ولقد أدركت منذ البداية أن نجاحنا يتوقف على ادراكنا الكامل لطبيعته الظروف التي نعيش فيها من تاريخ وطننا ، فإنا لم نكن نستطيع أن نغير هذه الظروف بجرة فلم، وكذلك لم نكن نستطيع أن تؤخر عقارب الساعة أو تقدمها ونتحكم في الزمن .. وكذلك لم يكن في استطاعتنا أن نقوم على طريق التاريخ بمهمة جندي المرور فنوقف مرور ثورة حتى تمر ثورة أخرى ، ونحول بذلك دون وقوع حادث اصطدام ، وانما كان الشيء الوحيد الذي نستطيعه هو أن نتصرف بقدر الامكان وننجو من أن يطحننا شقا الرحي ..

وكان لا بد أن نسير في طريق الثورتين معا .

ويوم سرنا في طريق الثورة السياسية فخلعنا فاروقا عن عرشه
سرنا خطوة مماثلة في طريق الثورة الاجتماعية فقررنا تحديد
الملكية .

ومازلت حتى اليوم أعتقد أنه ينبغي أن تظل ثورة ٢٣ يوليو
محتفظة بقدرتها على الحركة السريعة والمبادأة ، لكي تستطيع أن
تحقق معجزة السير في ثورتين في وقت واحد ، مهما يبدو في بعض
الأحيان من التناقض في تصرفاتنا .

وحين جاءني واحد من أصدقائي يقول لي :
« أنت تطالب بالاتحاد لمواجهة الانجليز ، وأنت في نفس الوقت
تسمح لمحاكم الغدر أن تستمر في عملها .. »
استمعت إليه ، وكانت في خيالي أزمتنا الكبيرة ، أزمة شقي
الرحى :

أزمة تقتضينا أن نتحد صفا واحدا وننسى الماضي .
وثورة تفرض علينا أن نعيد الهبة الضائعة لقيم الأخلاق ولا
ننسى الماضي ! .

ولم أقل لهذا الصديق : ان منفذنا الوحيد الى النجاة ، أنا
محتفظ — كما قلت — بسرعة الحركة والمبادأة ، وبالقدرة على أن
أسير في طريقين في وقت واحد .

ولم أشأ أنا ذلك ، ولا شاء كل الذين شاركوا في ٢٣ يوليو .
ولكن القدر شاء ، وتاريخ شعبنا ، والمرحلة التي يمر بها
اليوم .

الجزء الثاني

العمل الايجابي - الحماسة لا تكفي - الرصاص يتكلم - صراخ
وعويل في الليل - ما أسهل ان يراق الدم - جدو رفي التاريخ -
يا عزيز يا عزيز - الفولاذ بنهار - شوق يتبلون هذا المجتمع -
أهصاب الناس وعقولهم - أفضينا الجميع - هذه حدودنا وذلك
واجبتنا .

ولكن ما الذى نريد أن نصنعه ؟

وما الطريق اليه ؟

الحق أنى فى معظم الأحيان كنت أعرف الإجابة على السؤال الأول . وإخال أنى لم أكن وحدى المنفرد بهذه المعرفة ، وإنما كانت تلك المعرفة أملا انعقد عليه إجماع جيلنا كله .

أما الإجابة عن السؤال الثانى « ما طريقنا الى هذا الذى نريد ؟ » فأنا أعترف أنها تغيرت فى خيالى كما لم يتغير شيء آخر ، وأكاد أعتقد أيضا أنها موضوع الخلاف الأكبر فى هذا الجيل !

وما من شك فى أننا جميعا نحلم بمصر المتحررة القوية .. ذلك أمر ليس فيه خلاف بين مصرى ومصرى .

أما الطريق الى التحرر والقوة .. فتلك عقدة العقد فى حياتنا . ولقد واجهت تلك العقدة قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وظللت أواجهها بعد ذلك كثيرا حتى اتضحت لى زوايا كثيرة كانت الظلال تسقط عليها فتخفيها ، وبدأت أمام بصيرتى آفاق كان الظلام الذى تصاد وطننا قرونا طويلة يلفها فلا أراها !

ولقد أحسست منذ انبثق الوعى فى وجدانى ، أن العمل الإيجابى واجب أن يكون طريقنا .. ولكن أى عمل !

ولقد تبدو كلمة « العمل الإيجابى » على الورق كافية لتحل المشكلة . ولكنها فى الحياة ، وفى الظروف العسيرة التى عاشها

بجيلنا ، وفي المحن التي كانت تنشب أظفارها في مقدرات وطننا ، لم تكن كافية .

وفي فترة من حياتي كانت الحماسة هي العمل الايجابي في تقديري . ثم تغير مثلي الأعلى في العمل الايجابي وأصبحت أرى أنه لا يكفي أن تضج أعصابي وحدي بالحماسة ، وإنما على أن أنقل حماسي كي تضج بها أعصاب الآخرين ..

وفي تلك الأيام قدت مظاهرات في مدرسة النهضة ، وصرخت من أعماقي بطلب الاستقلال التام ، وصرخ ورأى كثيرون .. ولكن صراخنا ضاع هباء وبددته الرياح أصداً واهنة لا تحرك الجبال ولا تحطم الصخور .

ثم أصبح العمل الايجابي في رأيي أن يجتمع كل زعماء مصر ليتحدوا على كلمة واحدة ، وطافت جموعنا الهاتفة الثائرة بيوتهم واحداً واحداً تطلب اليهم باسم شباب مصر أن يجتمعوا على كلمة واحدة .. ولكن اتحادهم على كلمة واحدة ، كان فجيرة لايماني . فان الكلمة الواحدة التي اجتمعوا عليها كانت معاهدة سنة ١٩٣٦ .



وجاءت الحرب العالمية الثانية . وما سبقها بقليل على شبابنا فالهبتة وأشاعت النار في خلجاته ، فبدأ اتجاهاً ، اتجاه جيل بأكمله يسير الى العنف .

وأعترف - ولعل النائب العام لا يؤاخذنى بهذا الاعتراف -
ان الاغتيالات السياسية توهجت فى خيالى المشتعل فى تلك الفترة
على أنها العمل الايجابى الذى لا مفر من الاقدام عليه اذا كان يجب
أن ننقذ مستقبل وطننا .

وفكرت فى اغتيال كثيرين وجدت أنهم العقبات التى تقف بين
وطننا وبين مستقبله ، ورحت أفند جرائمهم ، وأضع نفسى موضع
الحكم على أعمالهم ، وعلى الأضرار التى ألحقتها بهذا الوطن ، ثم
أشفع ذلك كله بالحكم الذى يجب أن يصدر عليهم .
وفكرت فى اغتيال الملك السابق وبعض رجاله الذين كانوا
يعبثون بمقدساتنا .

ولم أكن وحدى فى هذا التفكير .
ولما جلست مع غيرى انتقل بنا التفكير الى التدبير .
وما أكثر الخطط التى رسمتها فى تلك الأيام ، وما أكثر الليالى
التي سهرتها ، أعد العدة للأعمال الايجابية المنتظرة .
كانت حياتنا فى تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة .
كانت لنا أسرار هائلة ، وكانت لنا رموز ، وكنا تستر بالظلام ،
وكنا نرصد المسدسات بجوار القنابل ، وكانت طلقات الرصاص هى
الأمل الذى نحلم به ! .

وقمنا بمحاولات كثيرة على هذا الاتجاه ، ومازلت أذكر حتى
اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع فى الطريق الى نهايته .

والحق اننى لم أكن فى أعماقى مستريحاً الى تصور العنق على
أنه العمل الايجابى الذى يتعين علينا أن نتقذ به مستقبل وطننا .

كانت فى نفسى حيرة ، تمتزج فيها عوامل متشابكة ، عوامل
من الوطنية ومن الدين ، ومن الرحمة ومن القسوة ، ومن الايمان
ومن الشك ، ومن العلم ومن الجهل ..

ورويدا رويدا وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التى توهجت
فى خيالى ، تخبو جذوتها وتفقد قيمتها فى قلبى كت تحقيق للعمل
الايجابى المنتظر .

وأذكر ليلة حاسمة فى مجرى أفكارى وأحلامى فى هذا
الاتجاه ، كنا قد أعددنا العدة للعمل .

وأخترنا واحدا قلنا انه يجب أن يزول من الطريق .
ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ووضعنا الخطة بالتفاصيل .
وكانت الخطة أن نطلق الرصاص عليه وهو عائد الى بيته فى
الليل .

ورتبنا فرقة الهجوم التى تتولى اطلاق النار ، وربنا فرقة
الحراسة التى تحمى فرقة الهجوم ، وربنا فرقة تنظيم الافلات الى
النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح .

وجاءت الليلة الموعودة وخرجت بنفسى مع جماعات التنفيذ ،
وسار كل شىء طبقا لما تصورناه .

أكان المسرح خاليا كما توقعنا ، وكمنت الفرق في أماكنها التي
حددت لها ، اقبل الواحد الذي كان يجب أن يزول ، وانطلق
الحصوه الرصاص ..

وانسحبت فرقة التنفيذ ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة ،
وبدأت عملية الإفلات الى النجاة ، وأدركت محرك سيارتي وانطلقت
أغادر المسرح الذي شهد عملنا الايجابي الذي رتبناه .

وفجأة دوت في سمعي أصوات صرخ وعويل ، وولولة امرأة
ورعب طفل ، ثم استغاثة متصلة محمومة .

وكنت غارقا في مجموعة من الانفعالات الشائكة ، والسيارة
اقتدفع بي بسرعة .

ثم أدركت شيئا عجيبا .

كانت الأصوات مازالت تمزق سمعي .

الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة المحمومة .

لقد كنت بعدت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسرى الصوت
ومع ذلك بدأ ذلك كله يلاحقني ويطاردني .

ووصلت الى بيتي ، واستلقيت على فراشي ، وفي عقلي حمى
وفي قلبي وضغيري غليان متصل .

وكانت أصوات الصراخ والعويل والولة والاستغاثة مازالت
تطرق سمعي ..

ولم أنم طول الليل ..

بقيت مستلقيا على فراشى في الظلام ، أشعل سيجارة وراء
سيجارة ، وأسرح مع الخواطر الثائرة ، ثم تتبدد كل خواطري على
الأصوات التي تلاحقني .

* أكنت على حق ؟ .

وأقول لنفسي في يقين :

— دوافعي كانت من أجل وطني !

* أكانت تلك الوسيلة لا مفر منها ؟ .

وأقول لنفسي في شك :

— ماذا كان في استطاعتنا أن نفعل ؟ .

* أيمكن حقا أن يتغير مستقبل بلدنا إذا خلصناه من هذا

الواحد أو من غيره ، أم المسألة أعمق من هذا ؟ .

وأقول لنفسي في حيرة :

— أكاد أحس أن المسألة أعمق ..

* اننا نحلم بمجد أمة ، فما هو الأهم : أيمضي من يجب أن

يمضي ، أم يجيء من يجب أن يجيء ؟ .

وأقول لنفسي واشعاعات من النور تتسرب بين الخواطر

المزدحمة .

— بل المهم أن يجيء من يجب أن يجيء .. أننا نحلم بمجد
أمة .. ويجب أن يبنى هذا المجد !.

وأقول لنفسي ومازلت أتقلب في فراشي في الغرفة التي ملأها
الدخان وتكاثفت فيها الانفعالات :

— واذن ؟.

— أسمع هاتفا يرد على :

— واذن ماذا ؟.

وأقول لنفسي في يقين هذه المرة :

— اذن يجب أن يتغير طريقنا .. ليس ذلك هو العمل الايجابي
الذي يجب أن تتجه اليه .. المسألة أعمق جذورا وأكثر خطورة
وأبعد أغوارا :

وأحس براحة نفسية صافية ، ولكن الصفاء ما يلبث أن تمزقه
هو الآخر أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة ، تلك
التي مازالت أصداؤها ترن في أعماقي ؟.

ووجدت نفسي أقول فجأة :

— ليت لا يموت !.

وكان عجبيا أن يطلع على الفجر ، وأنا أتمنى الحياة للواحد
الذي بمنيت له الموت في المساء !.

وهرعت في لهفة الى احدى صحف الصباح .. وأسعدني أنا
الرجل الذي دبرت اغتياله .. قد كتبت له النجاة .

ولكن تلك لم تكن المشكلة الأساسية .

وانما المشكلة الأساسية .. هي العثور على العمل الايجابي .

ومنذ ذلك الوقت بدأ تفكيرنا الحقيقي في شيء أعمق جذورا
وأكثر خطورة وأبعد أغوارا .

وبدأنا نرسم الخطوط الأولى في الصورة التي تحققت مساء
٢٣ يوليو ، ثورة منبعثة من قلب الشعب ، حاملة لأمانيه ، مكمله
لنفس الخطوات التي خطاها من قبل على طريق مستقبله .

ولقد بدأت هذا الحديث بسؤالين :

أولهما : ما الذي نريد أن نصنعه ؟ .

والثاني : وما طريقنا اليه ؟ .

وقلت ان الاجابة عن السؤال الأول أمل انعقد عليه الاجماع .

أما السؤال الثاني : ما طريقنا الى الذي نريد أن نصنعه ؟ فهو
الذي أطلت فيه الكلام حتى وصلت الى ٢٣ يوليو .

ولكن أكان الذي حدث يوم ٢٣ يوليو هو كل ما نريد أن
لصنعه ؟ .

المؤكد أن الجواب بالنفى ، فإن تلك لم تكن الا الخطوة الأولى على الطريق .

والحق أن فرحة النجاح في ٢٣ يوليو لم تخدعنى ، ولم تصور لى أن الآمال قد تحققت ، وأن الربيع قد جاء .. بل لعل العكس هو الصحيح ..

لقد كانت كل دقيقة تحمل الى انتصارا جديدا للثورة ، تحمل الى نفس الوقت عبئا ضخما ثقيل تلقيه بلا مبالاة فوق كتفى .

ولقد قلت في الجزء الأول من هذا الحديث : «انى كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة ، وأنها لا تنتظر الا طليعة تقتحم أمامها السور فتندفع الأمة وراءها صفوفًا مترابطة منتظمة زاحفة » .

وقات : اننى تصورت دورنا على أنه دور الطليعة ، وكنت أتصور أنه لن يستغرق أكثر من بضع دقائق يلحق بنا بعدها زحف الصفوف المنتظمة .

ورسمت أيضا في ذلك الجزء صورة للخلافات والفوضى والأحقاد والشهوات التى انطلقت من عقالها في تلك اللحظات، كل منها يحاول بأنانيته أن يستغل الثورة لتحقيق أهداف بعينها .

ولكن أشهد أنه كان يجب أن أتوقع أن يحدث الذى حدث . ولقد فلت وسأظل أقول أن تلك كانت أفسى مفاجأة فى حياتى .

لم يكن يمكن أن نضغط على زر كهربائي فتتحقق أحلامنا .
ولم يكن يمكن فى غمضة عين أن تزول رواسب قرون
ومخلفات أجيال .

ولقد كان من السهل وقتها - ومازال أسهلا حتى الآن - أن نريق
دماء عشرة أو عشرين أو ثلاثين ، فنضج الرعب والخوف فى كثير
من النفوس المترددة ونرغمها على أن تبتلع شهواتها وأحقادها
وأهواءها .

ولكن أى نتيجة كان يمكن أن يؤدى إليها مثل هذا العمل ؟
ولقد كنت أرى أن الوسيلة لمواجهة مشكلة من المشاكل هو
ردها إلى أصلها ومحاولة تتبع ينبوع الذى بدأت منه .

وكان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر إلى
الظروف التاريخية التى مر بها شعبنا والتى تركت فى نفوسنا جميعا
تلك الآثار وصنعت منا مانحن عليه الآن ..

ولقد قلت مرة أنى لأريد أن أدعى لنفسى مقعد أستاذ
التاريخ ، فذلك آخر مايجرى إليه خيالى ، وقلت انى سأحاول
محاولات تلميذ مبتدىء فى التاريخ .

ولقد شاء لنا القدر أن نكون على مفرق الطريق من الدنيا ،
وكثيرا ما كنا معبرا للغزاة ، مطمعا للمغامرين ، ومرتبنا ظروف
كثيرة يستحيل علينا أن نحلل العوامل الكامنة فى نفوس شعبنا إلا
إذا وضعناها موضع الاعتبار .

وفى رأى أنه لا يمكن اغفال تاريخ مصر الفرعونى ، ثم تفاعل
الروح اليونانى مع روحنا ، ثم غزو الرومان ، والفتح الاسلامى
وموجات الهجرة العربية التى أعقبته .

وفى رأى أيضا أنه يجب التوقف طويلا عند الظروف التى
مرت علينا فى العصور الوسطى ، فان تلك الظروف هى التى وصلت
بنا الى ما نحن عليه الآن .

واذا كانت الحروب الصليبية بداية فجر النهضة فى أوروبا ،
فقد كانت بداية عهد الظلام على وطننا .

فلقد تحمل شعبنا وحده معظم أعباء الحروب الصليبية ، وخرج
بعدها فقيرا ، معدما ، منهوك القوى .

وفى نفس الوقت الذى هدته المعركة فيه ، شاءت له الظروف
أن يعانى الذل تحت سناك خيول الطغاة القادمين من المغول
والشركس ..

كانوا يجيئون الى مصر عبيدا فيفتكون بأمرائهم ويصبحون
هم الأمراء .

وكانوا يساقون اليها ممالك فلا تمضى عليهم فترة فى البلاد
الطيب الوديع حتى يصبحوا ملوكا .

وأصبح الطغيان والظلم والخراب ، طابع الحكم فى مصر على
عهدهم الذى عاشت مصر فى مجاهله قرونا طويلة .

فى تلك الفترة تحول وطننا الى غابة تحكمها وحوش ضارية.
كان المماليك يعتبرونها غنمة سائغة ، وكان الصراع الرهيبي بينهم
هو على نصيب كل منهم فى الغنمة .

وكانت أرواحنا ، وثرواتنا ، وأراضينا ، هي الغنمة .

وأحيانا حينما أعود الى تقليب صفحات من تاريخنا ، أحس
بالأسى يمزق نفسى اذاء تلك الفترة التى تكون فيها اقطاع طماع
لم يجعل له من عمل الا مص دماء الحياة من عروقنا ، وأكثر من
هذا سحب بقايا الاحساس بالقوة والكرامة من هذه العروق ،
وترك فى أعماق نفوسنا تأثيرا يتعين علينا أن نكافح طويلا لـ
نتغلب عليه ..

والواقع أن تصورى لهذا التأثير يعطينى فى كثير من الأحيان
تفسيرا لبعض المظاهر فى حياتنا السياسية .

أحيانا مثلا يخيّل الى أن كثيرين يقفون من الثورة موقف المتفرج
الذى لا يعنيه من الأمر الا مجرد انتظار نتيجة معركة يتصارع بها
طرفان لاتربطه بأيهما علاقة .

وأحيانا أثور على هذا الوضع ، وأحيانا أقول لنفسى وللبعض
من زملائي :

لماذا لا يقدمون ؟ ولماذا لا يخرجون من المكامن التى وصعوا
فيها أنفسهم ، ليتكلموا ويتحركوا ؟.

ولا أجد تفسيراً لهذا إلا رواسب حكم الممالك
كان الأمراء يتصارعون ، ويتطاحن فرسانهم في الشوارع
ويهرع الناس الى بيوتهم يعلقونها عليهم بعيدين عن هذا الصراع
الذي لا دخل لهم فيه .

وأحيانا يخيل الى أننا نلجأ الى خيالنا نكلفه أن يحقق لنا قى
أطار الوهم ما نريده ، ونستمتع نحن بهذا الوهم ونعقد به عن
محاولة تحقيقه .

ولم يتخلص كثيرون منا من هذا الشعور بعد ، ولم يهضموا
أن البلد بلدهم وأنهم سادته وأصحاب الأمر فيه .
ولقد ظلمت مرة أحاول أن أفهم عبارة كثيراً ما هتفت بها طفلاً
صغيراً حينما كنت أرى الطائرات فى السماء .
« ياربنا يا عزيز .. داهية تأخذ الانجليز » .

ولقد اكتشفت فيما بعد أننا ورثنا هذه العبارة عن أجدادنا
على عهد الممالك ، ولم تكن يوماً منصبة على الانجليز ، وانما
حورناها نحن أو حورتها الرواسب الكامنة فينا والتي لم تتغير وإن
تغير اسم الظالم ، فقد كان أجدادنا يقولون :
« يارب يا متجلى .. اهلك العثماني ! » .

وبنفس الروح التى لم يتغير جرى المعنى على لساننا وإن تغير
اسم « الانجليز » باسم العثمانيين طبقاً للتغيرات السياسية التى
توالى على مصر بين العهدين ! .

ثم ماذا حدث لنا بعد عهد المماليك؟

جاءت الحملة الفرنسية ، وتحطم الستار الحديدي الذي فرضه
المغول علينا ، وتدفقت علينا أفكار جديدة ، وتفتحت لنا آفاق
لم يكن لنا بها عهد .

وورثت أسرة محمد علي كل ظروف المماليك ، وإن حاولت أن
تضع عليها من الملابس ما يناسب زى القرن التاسع عشر .
وبدأ اتصالنا بأوروبا والعالم كله من جديد .

بدأت اليقظة الحديثة !

وبدأت اليقظة بأزمة جديدة .

لقد كنا - في رأيي - أشبه بمريض قضي زمنا في غرفة مغلقة ،
واشتدت الحرارة داخل الغرفة المغلقة حتى كادت أنفاس المريض
تختنق ..

وفجأة هبت عاصفة حطمت النوافذ والأبواب ، وتدافعت
تيارات الهواء البارد تلسع جسد المريض الذي مازال يتصيب
عرقا .

لقد كان في حاجة الى نسمة هواء . فانطلق عليه أعصار عاتق
وأنشبت الحمى أظافرها في الجسد المنهوك القوى .

هذا ما حدث لمجتمعنا تماما ، وكانت تجربة مخفوفة بالمخاطر !

كان المجتمع الأوروبي قد سار في تطوره بنظام ، واجتاز
الجسر بين عصر النهضة من أعقاب القرون الوسطى الى القرن
التاسع عشر خطوة خطوة ، وتلاحقت مراحل التطور واحدة
أخرى .

أما نحن فقد كان كل شيء مفاجئاً لنا .

أكنا نعيش داخل ستار من الفولاذ فانهار فجأة .

كنا قد انقطعنا عن العالم واعتزلنا أحواله ، خصوصاً بعد
تحول التجارة مع الشرق الى طريق رأس الرجاء الصالح ، فاذا
نحن نصبح مطمع دول أوروبا ومعبرا الى مستعمراتها في الشرق
والجنوب .

وانطلقت علينا تيارات من الأفكار والآراء لم تكن المرحلة التي
وصلنا اليها في تطورنا تؤهلنا لقبولها .

كانت أرواحنا مازالت تعيش في آثار القرن الثالث عشر ، وان
سرت في نواحيها المختلفة مظاهر القرن التاسع عشر ثم القرن
العشرين .

وكانت عقولنا . تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التي
تخلفنا عنها خمسة قرون أو يزيد ، وكان الشوط ماضياً والسباق
مروعاً مخيفاً .

وما من شك في أن هذا الحال هو المسئول عن عدم وجود
رأى عام قوى متحد في بلادنا ، فإن الفارق بين الفرد والفرد
والفارق بين الجيل والجيل شاسع .

ولقد جاء على وقت كنت أشكو فيه من أن الناس لا يعرفون
ماذا يريدون ، وأن اجماعهم لا ينعقد على طريق واحد سيرون فيه ،
ثم أدركت بعدها أنني أطلب المستحيل ، وأننى أسقط من حسابي
ظروف مجتمعنا ..

اننا نعيش في مجتمع لم يتبلور بعد ، وما زال يفور ويتحرك
ولم يهدأ حتى الآن أو يتخذ وضعه المستقر ويواصل تطوره
التدريجي بعد مع باقى الشعوب التى سبقتنا على الطريق .

وأنا أعتقد ، دون أن أكون فى ذلك متملقا لعواطف الناس ،
أن شعبنا صنع معجزة ، ولقد كان يمكن أن يضيع أى مجتمع تعرض
لهذه الظروف التى تعرض لها مجتمعنا ، وكان يمكن أن تجرفه هذه
التيارات التى تدفقت علينا .. ولكننا صمدنا للزلازل العنيف .

صحيح أننا نفقد توازننا فى بعض الظروف ، ولكننا بصفة
عامة ، لم نقع على الأرض .

وأنا أنظر أحيانا الى أسرة مصرية عادية من آلاف الأسر التى
تعيش فى العاصمة .

الأب مثلا فلاح معمر من صميم الريف .

والأم سيدة منحدرة من أصل تراكي .

وأبناء الأسرة في مدارس على النظام الانجليزي .

وفتياتها في مدارس على النظام الفرنسي .

كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين .

أنظر الى هذا وأحس في أعماقي بفهم للحيرة التي تقاسمها
وللتخبط الذي يفترسنا ، ثم أقول لنفسي :

— سوف يتبلور هذا المجتمع ، وسوف يتماسك ، وسوف
يكون وحدة قوية متجانسة ، انما ينبغي أن نشد أعصابنا وتحمّل
فترة الانتقال .

تلك اذن هي الأصول التي انحدرت منها أحوالنا اليوم ، وهذه
هي الينايع التي تجري منها أزمئنا ، فاذا أضفت الى هذه الجذور
الاجتماعية ، ظروفنا من أجلها طردنا « فاروق » ، ومن أجلها نريد
تحرير بلادنا من أي جندي غريب . — اذا أضفت هذا كله ، لخرجنا
الى الأفق الواسع الذي نعمل فيه ، والذي تهب عليه الرياح من كل
قاحية . وتزمر في جنباته العواطف الهوج ، وتتوهج فيه البروق
وتهدر الرعود ، والذي قلت أنه من الظلم أن يفرض فيه علينا
حكم الدم ، مع مراعاة كل هذه الظروف والملايسات .

واذن ماهو الطريق ؟ .

وما هو دورنا علم ، هذا الطريق ؟ .

أما الطريق فهو الحرية السياسية والاقتصادية .

وأما دورنا فيه فدور الحراس فقط ، لا يزيد ولا ينقص . . .
الحراس لمدة معينة بالذات موفوته بإجل .

وما أشبه شعبنا الآن بقافلة كان يجب أن تلزم طريقا معيناً
وطال عليها الطريق ، وقابلتها المضاعف ، وانبرى لها اللصوص
وقطاع الطرق ، وضللها السراب ، فتبعثرت القافلة . كل جماعة منها
تبردت في ناحية ، وكل فرد مضى في اتجاه .

وما أشبه مهمتنا في هذا الوضع بدور الذي يمضى فيجمع
الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ثم يتركهم
يوصلون السير .

هذا هو دورنا ولا أتصور لنا دورا سواه .

ولو خطر لي أننا نستطيع أن نحل كل مشاكل وطننا لكنت
واهما ، وأنا لأحب أن أتعلق بالأوهام .

إننا لا نملك القدرة على ذلك ، ولا نملك الخبرة لنقوم به .

إنما كل عملنا أن نحدد معالم الطريق كما قلت ، وأن نجري
وراء الشاردين فنردهم إلى حيث ينبغي أن يبدأوا المسير ، وأننا
نلتحق بالسائرين وراء السراب فنقنعهم بعث الوهم الذي يجرون
وراءه .

ولقد كنت مدركا منذ البداية أنها لن تكون مهمة سهلة، وكنت
أعلم مقدما أنها ستكون الكثير من شعبيتنا .

لقد كان يجب أن تتكلم بصراحة ، وإن نخطب عقول الناس ،
وكان الذين سبقونا قد تعودوا أن يعطسوا الوهم ، وأن يقولوا
للناس ما يريد الناس أن يسمعوه .

وما أسهل الحديث الى غرائز الناس ، وما أصعب الحديث
الى عقولهم .

وغرائزنا جميعا واخدة ، أما عقولنا فموضع الخلاف والتفاوت ،
وكان سياسة مصر في الماضي من الذكاء بحيث أدركوا هذه الحقيقة
فاتجهوا الى الغريزة يخاطبونها . أما العقل فتركوه هائما علي وجهه
في الصحراء .

وكنا نستطيع أن نفعل نفس الشيء .

كنا نستطيع أن نملأ أعصاب الناس بالكلمات الكبيرة التي
لا تخرج عن حد الوهم والخيال . أو تدفعهم وراء أعمال غير منظمة
لم تعد لها العدة أو تتخذ لها أهمية ، أو كنا نستطيع أن نترك
أصواتهم تبج من كثرة هتافهم :

« يا ربنا يا عزيز .. داهية تاخذ الانجليز » .

تماما كما كان أجدادنا تبج أصواتهم أيام المماليك من كثرة
هتافهم :

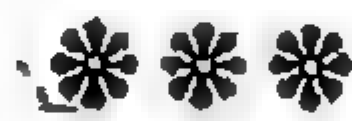
« يارب بامتجلى .. اهلك العثملى » .

وبعدها لا شيء .

لكن آكانت تلك مهمتنا التي شاءها لنا القدر ؟ .

وما الذي كنا نستطيع أن نحققه فعلا اذا مبرنا في هذا السبيل ؟
ولقد قلت في الجزء الأول من هذا الحديث أن نجاح الثورة
يتوقف على ادراكها لحقيقة الظروف التي تواجهها ، وقدرتها على
الحركة السريعة . وأضيف الآن الى ذلك أنها يجب أن تتحرر من
آثار الألفاظ البراقة ، وأن تقدم على ما تتصور أنه واجبها مهما كان
الشن شعبيتها ومن الهتاف بحياتها والتصفيق لها ! .

والا فانا نكون قد تخلىنا عن أمانة الثورة وعن واجباتها .



وكثيرا ما ييجئني من يقول لي :

— لقد أغضبتم كل الناس .

وعلى مثل هذه الملاحظة ارد دائما :

— ليس غضب الناس هو العامل المؤثر في الموقف ، وإنما
السؤال هل كان الذي أغضبهم يعمل لصالح الوطن أو لغيره ؟ .

أنا أدرك أننا أغضبنا كبار الملاك .

لكن ، هل كان يمكن ألا نغضبهم وتترك تربة وطننا وفيينا من
يملك منها عشرات الألوف من الأفدنة وفيينا من لا يملك قطعة يدفن
فيها بعد أن يموت ؟ .

وأنا أدرك أننا أغضبنا الساسة القدماء .

**ولكن هل كان يمكن أن نغضبهم وتترك وطننا فريسة
لشهواتهم وفسادهم وصرايحهم على مغاير الحكم ؟**

وأنا أدرك أننا أغضبنا عددا كبيرا من الموظفين .

**ولكن هل كان يمكن أن نعطي أكثر من نصف ميزانية الدولة
هزقات للموظفين ولا نستطيع - كما صنعنا بالفعل - أن نخصص
أربعين مليونا من الجنيهات للمشروعات الـاقتصادية ؟**

**ماذا علينا لو كنا فتحنا - كما فعل غيرنا - خزائن الدولة
ووزعنا مافيها على الموظفين وليكن بعد ذلك الطوفان ، وليكن
- أيضا - أن يجيء العام القادم فلا تستطيع الحكومة أن تدفع
هزقات موظفيها أصلا وأساسا .**

**وما كان أسهل أن نرضى هؤلاء جميعا وغيرهم .. ولكن
ما الثمن الذي كان وطننا سيدفعه من آماله ومستقبله في مقابل
هذا الرضا ؟**

**ذلك دورنا الذي حدده لنا تاريخ وطننا ، ولا مفر أمامنا من
أن نقوم به ، مهما كان الثمن الذي ندفعه .**

**ولم نخطئ أبدا في فهم هذا الدور ، ولا في ادراك طبيعة
الواجبات التي يلقيها علينا .**

تلك خطوات لاصلاح آثار الماضى ورواسبه مضينا فيها
وتحملنا من أجلها كل شيء .

فلما جاء الكلام عن المستقبل قلنا اننا لا نملك هذا وحدنا .



فمن أجل ضمان الحياة السياسية في المستقبل ذهبنا الى علماء
من قادة الراى من مختلف الطبقات والعقائد وقلنا لهم .

— ضعوا للبلد دستورا يصون مقدساته .

وكانت لجنة وضع الدستور .

ومن أجل ضمان الحياة الاقتصادية في المستقبل ذهبنا الى
أكبر الأساتذة في مختلف نواحي الخبرة وقلنا لهم :

نظموا للبلد رخاءه وادخلوا لقمة العيش لكل فرد فيه .

وكان مجلس الانتاج .

تلك حدودنا لم تعددها /

إزالة الصخور والعقبات من الطريق ، مهما يكن الثمن .

والعمل للمستقبل من كل نواحيه مفتوح لكل ذوى الراى
والخبرة ، فرض لازم عليهم وليس لنا أن نستأثر به دونهم ، بل اننا
مهمتنا تقتضى أننا نسعى لجمعهم من أجل مستقبل مصر .. مصر
القوية المتحررة !

الجزء الثالث

بعد خمسة ثلاثة شهور - الزمان والمكان - القدر لا بهـؤل =
دوائر ثلاث - دور يبحث عن بطة - فلسطين ليست بلدا غريبا =
لقاء مع عرب فلسطين - اهل اسرار الطيران - افكار في ميدان
القتال - الارض والنجوم - نظرة الى مذكرات وايمان - الكفاح
الواحد وعناصره - القوة بالارواح - مسئولياتنا في افريقيا =
الحكمة الحقيقية من الحج .

مرة ثالثة أعود الى فلسفة الثورة .

أعود اليها بعد غيبة طويلة امتدت الى أكثر من ثلاثة شهور حافلة بالأحداث والتطورات السريعة المتلاحقة .

ثلاثة شهور حاولت خلالها أكثر من مرة أن أجد الساعات التي أسجل فيها هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ، فعصفت رياح الأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة بهذه المحاولات وبعتها في الفضاء .

ولكن الرياح التي عصفت بمحاولات التسجيل لم تعصف بالخواطر نفسها ، وصحيح أن هذه الخواطر لم تجر على ورق ، ولكنها ظلت تدور في تفكيري وتتفاسل مع غيرها وتبحث عن تفاصيل أخرى ، سواء في ذاكرتي أو في الأيام ، تضيفها اليها لتكمل بها صورة صحيحة واضحة .

ولكن ما الصورة الصحيحة الواضحة التي أريد أن أرسها هذه المرة ؟ وما علاقتها بالمحاولات التي قمت بها قبل ذلك ، في الجزء الأول ثم في الجزء الثاني من هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ؟

لقد تحدثت في الجزء الأول عن بداية الثورة في نفوسنا كأفراد وفي نفوسنا كنماذج عادية من شباب جيلنا ، وعن الثورة في تاريخ أمتنا ، وعن يوم ٢٣ يوليو في هذه الثورة .

وفي الجزء الثاني تحدثت عن محاولات على طريق الثورة، وكيف حدد لنا تاريخ شعبنا هذه الطريق ، سواء في نظرتنا المليئة بالعبر الى الماضي أو في تطلعنا المنعم بالأمل الى المستقبل .

واذن فقد كان حديثي في الجزأين السابقين عن الزمان ، ومن هنا أشعر بأن المكان يطالب بحقه ، واذن فليكن الحديث في هذه المرة عنه .

وليس هدفي أن أدخل في بحث فلسفي معقد عن الزمان والمكان . وإنما الذي لاشك فيه هو أن العالم كله ، لا وطننا فحسب ، هو نتيجة لتفاعل الزمان والمكان

وإذا كنت أقول اننا في تصويرنا لأحوال وطننا لانستطيع أن ننسى عنصر الزمان ، فافتنا أيضا ونسبة متساوية لا نستطيع أن ننسى عنصر المكان .

وبعبارة أبسط :

نحن الآن لا نستطيع أن نعود الى القرن العاشر ، نرتدي ملابس التي تبدو لعيوننا غريبة مضحكة ، وتتوه في أفكاره التي تظهر أمامنا اليوم أطباقا من الظلام خلت من كل شعاع .

وكذلك نحن الآن لا نستطيع أن نتصرف على أننا قطعة من ألاسكا المتعلقة بأقصى أصقاع انشمال ، أو على أننا جزيرة «ويك» النائية المهجورة في تيه الباسفيك .

الزمان اذن يفرض علينا تطوره .

والمكان أيضا يفرض علينا حقيقته .

ولقد حاولت مرتين أن أمضى مع الزمان ، فلأحاول هذه المرة
أن أتجول في عالم المكان .



وثمة شيء يجب أن تتفق عليه أولا وقبل أن نمضى في هذا
الحديث ذلك هو تعريف حدود المكان بالنسبة لنا .

ان قال لى أحد أن المكان بالنسبة لنا هو هذه العاصمة التى
نعيش فيها فانى أختلف معه . وان قال لى أحد ان المكان بالنسبة
لنا هو حدود بلادنا السياسية فانى أيضا أختلف معه .

ولو كان الأمر كله محصورا فى حدود عاصمتنا . أو فى حدود
بلادنا السياسية لهان الأمر ، ولأقفلنا على أنفسنا كل الأبواب
وعشنا فى برج عاجى نحاول أن نبعد به بقدر ما نستطيع عن العالم
ومشاكلة وحروبه وأزماته تلك التى تقتحم علينا أبواب بلادنا وتؤثر
فينا دون أن يكون لنا فيها دخل أو نصيب .

ولقد مضى عهد العزلة .

وذهبت الأيام التى كانت فيها خطوط الأسلاك الشائكة التى
تخطط حدود الدول تفصل وتعزل .

ولم يعد مقر أمام كل بلد أن يدين البصر نحوه خارج حدوده
ولاده ليعلم من أين تبيته التيارات التي تؤثر فيه، وكيف يمكن أن
يعيش مع غيره وكيف .. وكيف ..

ولم يعد مقر أمام كل دولة من أن تبجل البصر حولها تبعث
من وضعها وظروفها في المكان ، وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه
وما هو مجالها الحيوي وميدان نشاطها ودورها الايجابي في هذا
العالم المضطرب .

وأنا أجلس أحيانا في غرفة مكتبي وأسبح بخواطري في نفس
هذا الموضوع أسائل نفسي :

— ما هو دورنا الايجابي في هذا العالم المضطرب ، وأين هو
المكان الذي يجب أن نقوم فيه بهذا الدور ؟.

وأستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لا مقر لنا من
أن يدور عليها نشاطنا وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا .

ان القدر لا يهزل ، ليست هناك أحداث من صنع الصدفة ، ولا
وجود يصنعه الهباء .

ولن نستطيع أن ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها
مكانتنا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان .

أيمكن أن تتجاهل أن هناك دائرة عريضة تحيط بنا ، وأن هذه
الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا
بمصلحتها . حقيقة وفعلا لا مجرد كلام ؟.

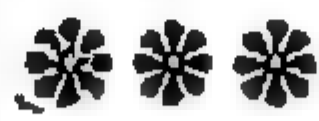
أيمكن أن تتجاهل أن هناك قارة أفريقية شاء لنا القدر أن تكون
فيها ، وشاء أيضا أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها
وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد. **!!**
أيمكن أن تتجاهل أن هناك عالما اسلاميا تجمعا وياه روابط
لا تقرر بها العقيدة الدينية فحسب ، وانما تشدها حقائق التاريخ **!!**
وكما قلت مرة : ان القدر لا يهزل .

فليس عبثا أن بلدنا في جنوب غرب آسيا يلاصق الدول العربية
وتشتبك حياته بحياتها .

وليس عبثا أن بلدنا يقع في شمال شرق أفريقيا ، ويطل من على
القارة السوداء التي يدور فيها اليوم أعنف صراع بين مستعمرها
البيض وأهلها السود من أجل مواردها التي لا تحصى .

وليس عبثا أن الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامي ... الذي
أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الاسلام القديمة - تراجع
الى مصر وآوى اليها فحتمه مصر وانتقذته عندما ردت غزو المغول
على أعقابه في عين جالوت .

كل هذه حقائق أصيلة ذات جذور عميقة في حياتنا ، لا نستطيع
مهما نحاول أن ننساها أو نقر منها .



ولست أدري لماذا أذكر دائما أصل الى هذه المرحلة من
أفكاري وأنا يجالس وحدي في غرفتي شاردا مع الأفكار ، قصة

مشهورة للشاعر الايطالى الكبير « لويندى بيراندلو » اسمها ٥
ست شخصيات تبحث عن ممثلين !

ان ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار
بطولة مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه .

ان ظروف التاريخ أيضا مليئة بأدوار البطولة المجيدة التى لم
تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه ، ولست أدري
لماذا يخيّل الى دائما أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دورا هائلا .
على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به ، ثم لست أدري لماذا
يخيّل الى أن هذا الدور الذى أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة
المتددة فى كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعبا منهوك
القوى على حدود بلادنا يشير اليها أن تتحرك ، وأن تنهض بالدور
ونرتدى ملابسه فان أحدا غيرنا لا يستطيع القيام به .

وأبذر هنا فأقول ان الدور ليس دور زعامة .

انما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ، يكون من
شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات
المحيطة بها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه
المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور ايجابى فى بناء مستقبل
البشر .

وما من شك في أن الدائرة العربية هي أهم هذه الدوائر
وأوثقها ارتباطا بنا .

فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا
أنفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنائك خيل الغزاة كانوا معنا
تحت نفس السنائك .

وامتزجت هذه الدوائر معنا أيضا بالدين ، فنقلت مراكز
الاشعاع الديني ، في حدود عواصمها ، من مكة ، الى الكوفة ،
ثم الى القاهرة ، ثم جمعها الجوار في اطار ربطته كل هذه العوامل
التاريخية والمادية والروحية .

وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسى أن طلائع الوعي العربى بدأت
تتسلل الى تفكيرى وأنا طالب فى المدرسة الثانوية أخرج مع زملائى
فى اضراب عام فى الثانى من شهر ديسمبر من كل سنة احتجاجا على
وعد بلفور الذى منحته بريطانيا لليهود ومنحتهم به وطن قوميا فى
فلسطين ، اغتصبه ظلما من أصحابه الشرعيين .

وحين كنت أسأل نفسى فى ذلك الوقت : لماذا أخرج فى
نحماسة ، ولماذا أغضب لهذه الأرض التى لم أرها ؟ لم أكن أجد فى
أنفسى سوى أصداء العاطفة .

ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيرى حول هذا الموضوع لما
أصبحت طالبا فى الكلية الحربية أدرس تاريخ حملات فلسطين
بصفة خاصة ، وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التى جعلت

منها في القرن الأخير قريسة سهلة تتخطفها أنياب مجموعة من
الوحوش الجائعة !.

ثم بدأ الفهم يتضح وتكشف الأعمدة التي تتركز عليها حقائقه
لما بدأت أدرس وأنا طالب في كلية أركان الحرب حملة فلسطين
ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل .

ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعا في أعماقي بأن القتال في
فلسطين ليس قتالا في أرض عربية . وهو ليس انسياقا وراء
عاطفة وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس !.



وأذكر يوما عقب صدور قرار تقسيم فلسطين في شهر
سبتمبر سنة ١٩٤٧ عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعا واستقر
وأبهم على مساعدة المقاومة في فلسطين . وذهبت في اليوم التالي
أطرق باب بيت الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، وكان لا يزال
يعيش في الزيتون ، وأقول له :

— انكم في حاجة إلى ضباط يقودون المارك ويدربون
المتطوعين وفي الجيش المصري عدد كبير من الضباط يريد أن
يتطوع وهم تحت أمرك في أي وقت تشاء !.

وقال لي الحاج أمين الحسيني انه سعيد بهذه الروح ، ولكنه
يرى أن يستأذن الحكومة المصرية قبل أن يقول شيئا .

ثم قال لي الحاج أمين :

خوف أعطيك ردي بعد استئذان الحكومة .

وعدت اليه بعد أيام ، وكان رده ، الرد الذي حصل عليه من
الحكومة ، هو الرفض .

ولم نسكت .

وبعدها كانت مدفعية أحمد عبد العزيز تلك المستعمرات
اليهودية جنسوبي القدس ، وكان قائد المدفعية هو كمال الدين
حسين عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار التي تحولت إلى
مجلس قيادة الثورة .

أذكر سيرا آخر كان ذات يوم أعلى أسرار الضباط الأحرار .

كان حسن إبراهيم قد سافر إلى دمشق ، واتصل ببعض
ضباط القاوقجي . وكان القاوقجي يقود قوات التحرير العربية
ويعتد لمعركة حاسمة فاصلة في المنطقة الشمالية من
فلسطين .

ووضع حسن إبراهيم وعبد اللطيف بغدادى خطة جريئة للقيام
بعمل حاسم في المعركة التي تستعد لها قوات التحرير .

كانت الخطوط البارزة في تلك الخطة هي أن قوات التحرير العربية
لا تملك طيرانا يساعدها في المعركة ويرجع النصر إلى كفتها ، ولو
أنها حصلت على معونة من الجو يضرب مركز فوق ميدان العملية

لكان ذلك عاملاً فاصلاً ، ولكن من أين لقوات التحرير العربية
بالطيران لتحقيق هذا الحلم ؟.

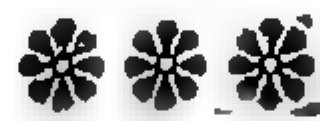
ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين ، وكان جو الرقابة
على القوات المسلحة - بما فيها سلاح الطيران - حاداً
متيقظاً .

ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة تنفذ منها الى تفاصيل الخطة
وبدأت في مطار سلاح الطيران حركة عجيبة ، وبرز فيها
انشاط واسع لاصلاح طائرات واعدادها ، وجهود واضحة في
التدريب سرت كالحمل في نفوس عدد من الطيارين ..
ولم يكن هناك الا قلائل يعرفون السبر ..

يعرفون أن الطائرات وقوادها قد أعدوا ليوم تجيء قية من
سوريا اشارة سرية ، فينطلقون بعدها الى الجو ليشاركوا بكل
قواتهم في معركة حاسمة على الأرض المقدسة . ثم يتجهون بعد ذلك
الى مطار قرب دمشق ، ينزلون فيه ويتربعون الأحوال في مصر ،
ويتعرفون صدى هذه الحركة التي أقدموا عليها ، ثم يقررون كيف
يتصرفون بعدها .

وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيار اشترك في هذه
العملية وأذكر أن كثيرين كانوا قد رتبوا أمورهم على أن الظروف
ربما تحول بينهم وبين العودة الى الوطن قبل سنوات قد تطول
وتمتد ..

وكان شعورنا في اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار . والمؤكد
أن نفس الشعور كان يراود مواطن كل الطيارين المشتركين في
المبر الكبير أن هذه المخاطرة الجريئة لم تكن حبا في المغامرة ،
ولا كانت رد فعل للعاطفة في نفوسنا ، إنما كانت وعيا ظاهريا
لايماننا بأن رفح ليست آخر حدود بلادنا ، وأن نطاق سلامتنا
يقضي علينا أن ندافع عن حدود أخواننا الذين شاءت لنا أحكام
القدر أن نعيش معهم في منطقة واحدة .



ولم تتم الخطة يوما .. لأننا لم نلق الإشارة السرية من
سوريا .

وقضت الظروف بعدها أن تدخل الجيوش العربية كلها الحرب
في فلسطين .

ولست أريد أن أدخل في تفاصيل حرب فلسطين - الآن -
فذلك بحث تتشعب فيه الأحاديث ، وإنما يعني من حرب فلسطين
دروس عجيبة .

لقد دخلتها شعوب العرب جميعا بدرجة واحدة من الحماسة ،
واذن فهذه الشعوب جميعا تشارك في شعورها وفي تقديرها
لحدود سلامتها .

ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة ، واذن
فهي جميعا ، كل منها في بلاده ، قد تعرض لنفس العوامل وحكمتها
نفس القوى التي ساقتها إلى الهزيمة ونكست رأسها بالذل والعار .

ولقد خلوت الى نفسي هرات كثيرة في خنادق عراق المنشية
وفي جحورها .

وكنت يوما أركان حرب الكتيبة السادسة التي كانت تقف
في ذلك القطاع وتدافع عنه أحيانا وتهاجم في أكثر الأحيان .

وكنت أخرج الى الأطلال المحطمة من حولي بفعل نيران العدو
لم أصبح بعيدا مع الخيال .

وأحيانا كانت الرحلة مع الخيال تمضي بي بعيدا الى آفاق
النجوم ، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المنطقة بأكملها .

وكانت الصورة تبدو في ذلك الوقت واضحة أمام
بصيرتي

هذا هو المكان الذي تقع محاصرين فيه ، هذه مواقع كتيبتنا
وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط .
وهذه قوات العدو تحيط بنا .

وهذه قوات أخرى لنا .. هي أيضا محاصرة لا تستطيع
الحركة الواسعة وإن بقي لها مجال للمناورة المحدودة .

إن الظروف السياسية المعقدة بالعاصمة التي تلبقى كلها
الأوامر تحيطها بحصار وتلحق بها عجزا أكثر من الذي تصنعه بنا
نحن القابعين في منطقة الفالوجة .

ثم هذه قوات اخواننا في السلاح وفي الوطن الكبير وفي
المصلحة المشتركة وفي الدافع الذي يجعلنا نهروا الى ارض
فلسطين .

هذه هي جيوش اخواننا .. جيشا جيشا .. كلها هي ايضا
محاصرة بفعل الظروف التي كانت تحيط بها والتي كانت تحيط
بمحكومتها .. لقد كانت جميعا تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها
ولا ارادة الا بقدر ما تحركها ايدي اللاعبين .

وكانت شعوبنا جميعا تبدو في مؤخرة الخطوط ضحية
مؤامرة محبوكة أخفت عنها عمدا ما يجري ، وضللتها حتى عن
وجودها نفسه .

وأحيانا كنت أهبط من ارتفاع النجوم الى سطح الأرض ،
فأحس أنني أدافع عن بيتي وعن أولادي ، ولا تعينني أحلامي
الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ .

وكان ذلك عندما ألتقي في تيجوالي فوق الأطلال المحطمة
ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا في براثن الحصار بعد أن
أخربت بيوتهم وضاع كل ما يملكون ، وأذكر بينهم طفلة صغيرة
كانت في مثل عمر ابنتي ، وكنت أراها وقد خرجت الى الخطين
والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن
لقمة عيش أو خرقعة قماش .

وكنت دائما أقول لنفسى :

— قد يحدث هذا لايتي !

وكنـت مؤمنا أن الذي يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث
وما زال احتمال حدوثه قائما - لأي بلد في هذه المنطقة مادام
تستسلما للعوامل والعناصر والقوى التي تحكمه الآن .



ولما انتهى الحصار وانتهت المعارك في فلسطين وعدت الى
الوطن ، وكانت المنطقة كلها في تصوري قد أصبحت كلا واحدا .
وأيدت الحوادث التي جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد في
نفسى .

كنت أتابع تطورات الموقف فيها فأجد أصدقاء يتجاوب بعضها
مع بعض .

كان الحادث يقع في القاهرة فيقع مشيل له في دمشق غدا ، وفي
بيروت وفي عمان ، وفي بغداد ، وغيرها .

وكان ذلك كله طبيعيا مع الصورة التي رسمتها التجارب في
نفسى .

منطقة واحدة ، ونفس الظروف ، ونفس العوامل ، بل نفس
القوى المتألبة عليها جميعا .

وكان واضحا أن الاستعمار هو أبرز هذه القوى .

حتى اسرائيل نفسها ، لم تكن الا أثرا من آثار الاستعمار .
فلولا أن فلسطين وقعت تحت الانتداب البريطانى لما استطاعت
الصهيونية أن نجد العون على تحقيق فكرة الوطن القومى في

فلسطين .. ولظلت هذه الفكرة خيالا مجنونا ليس له أى أمل فى الواقع .

وأنا أكتب هذه الخواطر وأمامى مذكرات حايم وايزمان رئيس جمهورية اسرائيل ومنشئها الحقيقى ، وهى المذكرات التى نشرها فى كتابه المشهور « التجربة والخطأ » وثمة عبارات معينة ذات طابع خاص تستوقفنى فيه .
يستوقفنى قول وايزمان :

« لقد كان يجب أن تساعدنا دولة كبرى ، وكانت فى العالم دولتان تستطيع كل منهما مساعدتنا ألمانيا وبريطانيا .
أما ألمانيا فقد آثرت أن تبتعد عن كل تدخل .
وأما بريطانيا فقد أحاطتنا بالرعاية والعطف » .
ويستوقفنى بعد ذلك قول وايزمان :

ولقد حدث فى المؤتمر الصهيونى السادس الذى عقدناه فى سويسرا أن وقف هرتزل يعلن يهود الدنيا أن بريطانيا العظمى ، وبريطانيا العظمى وحدها دون كل دول الأرض ، قد اعترفت باليهود كأمة ذات كيان مستقل ، منفصلة عن غيرها .

واننا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن ، وبأن تكون لنا دولة ، وقرأ هرتزل خطابا من اللورد لاتريسون نائبا عن الحكومة البريطانية يتضمن هذا المعنى . وكان هذا الخطاب يقدم لنا أرض أوغندا لتكون وطننا قوميا .

وقرر أعضاء المؤتمر قبول هذا العرض .

ولكننا بعد ذلك كتمنا أنفاسه في المهد ودقناه دون ضجة ،
وعادت بريطانيا تريد أن تسترضينا .

وعلى أثر هذا العرض ألفنا لجنة من عدد كبير من علماء
اليهود سافروا الى مصر لدراسة منطقة سيناء وقابلوا في القاهرة
اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر الذي أظهر كل العطف
على أمانينا في الوطن القومي .

ولكن اللجنة لم تجد في منطقة سيناء ما يفى بالغرض الذي
أكنا من أجله نريد الوطن القومي .

ولقد قابلت بعدها لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الذي
يادر بسؤالى على الفور :

لماذا لم تقبلوا اقامة الوطن القومي في أوغندا ؟ .

وقلت لبلفور :

ان الصهيونية حركة سياسية قومية ، هذا صحيح ، ولكن
الجانب الروحي منها لا يمكن اغفاله ، وأنا واثق تمام الوثوق أننا
إذا أغفلنا الجانب الروحي فأننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسى
القومى :

ثم قلت لبلفور :

« ماذا تقول لو أن أحدا قال لك خذ باريس بدلا من لندن .»

هل تقبل ؟ «

ويستوقفني أيضا قول وايزمان :

« وعلت الى لندن في خريف سنة ١٩٢١ وكان القرون من
رجوعي اتني دعيت الى لندن لأشرف على كتابة مشروع وثيقة
الاتحاد البريطاني في فلسطين .

وكان يجب أن تعرض هذه المسودة على عصبة الأمم لتصلح
بها قرارا بعد أن وافق مؤتمر سان ريمو على فكرة الاتحاد
نفسها .

وكان لورد كيرزون قد ولي وزارة الخارجية محل بلفور
وكان هو المسئول عن وضع مشروع الوثيقة .

وكان معنا في لندن القانوني الشهير ابن كوهين ، وهو من
أقدر واضعي الصيغ القانونية في العالم ، وكان ايريك فوربس
لأدام سكرتير كيرزون يتعاون معنا .

ووقع بيننا وبين كيرزون خلاف أول وأخير :

كتبنا نحن في مشروع الوثيقة عبارة أردنا أن نقيّد بريطانيا
فيها بوعده بلفور ، وبأن تكون خطتها في فلسطين قائمة على
أساس الوطن القومي لليهود ، وكان نص العبارة التي كتبناها
المن :

« والاعتراف بحقوق اليهود التاريخية في فلسطين »

وقال كيرزون انه يقترح تخفيف العبارة حتى لا يهيج العرب
هند قراءتها ، وقال انه يرى أن تكون كما يلي :

«والاعتراف بصلات اليهود وعلاقاتهم التاريخية في فلسطين»
وكنيت أود أن أستطرد طويلا مع وايزمان في « التجربة
والخطأ » ... ولكننا جميعا نعلم أن هذه الحوادث القديمة كانت
الجرائم الأولى للمضاعفات التي مزقت كيان فلسطين ودمرت
وجودها !.



وأعود الى الذي كنت أقوله من أن الاستعمار هو القوة
الكبرى التي تفرض على المنطقة كلها حصارا قاتلا غير مرئي ،
أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار الذي كان يحيط بخنادقنا في
« الفالوجا » ويجيوشنا جميعا وبحكوماتنا في العواصم التي كنا
نقتل منها الأوامر ..

ولقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق في نفسي ،
أومن بكفاح واحد مشترك ، وأقول لنفسي :

— ما دامت المنطقة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشاكلها
واحدة ، ومستقبلها واحد .. والعدو واحد مهما يحاول أن يضع
على وجهه من أقنعة مختلفة — فلماذا تشتت جهودنا ؟.

ثم زادتني تجربة ما بعد ثورة ٢٣ يوليو ايمانا بهذا الكفاح
الواحد وضرورته .

فقد بدأت خبايا الصورة تنكشف ، والظلام الذي كان يحيط
بتفاصيلها ينقشع .

وأعترف أنني كذلك بدأت أرى العقبات الكبرى التي تسد الطريق إلى الكفاح الواحد ، ولكنني بدأت أؤمن بأن هذه العقبات نفسها ينبغي أن تزول ، لأنها من صنع ذلك العدو الواحد نفسه .

ولقد بدأت أخيرا في اتصالات سياسية من أجل توحيد الكفاح مهما تكن وسيلته، وخرجت بعد شهر من هذه الاتصالات بنتيجة هامة ، هي العقبة الأولى في طريقنا هي « الشك » وكان واضحا أن بذور هذا الشك قد بذرها في نفوسنا ذلك العدو الواحد نفسه ، لكي يحول بيننا وبين الكفاح الواحد .

وأذكر أنني جلست في الأيام الأخيرة أتحدث مع أخ من مناسة العرب ، وكان معنا زميل له ، وبدأت أتكلم ، وبدأ هو يرد على الذي أقوله ..

وكان يقول العبارة ثم يلتفت إلى زميله ليرى أثر الذي يقوله في وجهه بدل أن يحاول استكشاف أثره في أنا .

وبدأت أقول له : تغلب على كل ما في نفسك من شكوك ، وقل لي كل ما في قلبك ، وانظر في عيني ولا تدبر وجهك .

ولست أريد بذلك أن أهون من أمر العقبات التي تحول بيننا وبين توحيد الكفاح ، فلاشك أن بعضها معقد تمتد أصوله إلى طبيعة البيئة وظروف شعوبها التاريخية والجغرافية ، ولكن المؤكد أنه يمكن مع شيء من المرونة القائمة على بعد النظر ، لا على

التفريط ، ايجاد الخط الذي يستطيع الجميع أن يققوا قية ،
بلا تخرج ، وبلا عنت ، لمواجهة الكفاح الواحد .

ولست أشك دقية في أن كفاحنا الواحد يمكن أن يعود إلينا
وعلى شعوبنا بكل الذي نريده لها وتمناه .

ولسوف أظل دائما أقول اننا أقوياء ولكن الكارثة الكبرى ،
أننا لا ندرك مدى قوتنا ! .

اننا نخطيء في تعريف القوة ، فليست القوة أن تصرخ بصوت
عال ، انما القوة أن تتصرف ايجابيا وبكل ما تملك من مقوماتها .
وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لا أجد مفرا من أن أضع
ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها يجب أن تكون أول ما يدخل في
الحساب .

أول هذه المصادر أننا مجموعة من الشعوب المتجاورة ،
الترابطة بكل رباط مادي ومعنوي يمكن أن يربط مجموعة من
الشعوب ، وأن لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة انبعثت في
جوها الأديان السماوية المقدسة الثلاثة ، ولا يمكن قط اغفالها في
محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام .
هذا هو المصدر الأول .

أما المصدر الثاني : فهو أرضنا نفسها ومكانها على خريطة
العالم . وذلك الموقع الاستراتيجي الهام الذي يعتبر بحق ملتقى
طرق العالم ، ومعبر تجارته ، وممر جيوشه .

يبقى المصدر الثالث : وهو البترول الذى يعتبر عصب الحضارة المادية ، والذى بدونه تستحيل كل أدواتها - المصانع الهائلة الكبيرة لكافة أنواع الانتاج ، وسائل المواصلات فى البر والبحر والجو ، أسلحة الحرب سواء فى ذلك الطائرات المحلقة فوق الضباب أو الغواصة المستترة تحت أطباق الموج - تستحيل كلها قطعا من الحديد يعلوها الصدا لا تنبعث منها حركة .. أو حياة .

وبودى لو وقفت قليلا عند البترول ، فلعل وجوده كحقيقة مادية تقررها الاحصائيات والأرقام يصلح ليكون نموذجا للمناقشة فى أهمية مصادر القوة فى بلادنا .

ولقد قرأت أخيرا رسالة طبعتها بجامعة شيكاغو عن ظروف البترول وبودى لو كان لكل فرد من أفراد شعبنا أن يقرأها ويتذير معانيها ويسرح بفكره فى المعنى الكبير الكامن وراء أرقامها واحصائياتها ؛

تقرر هذه الرسالة مثلا أن العمل لاستخراج بترول البلاد العربية لا يتكلف كثيرا من المال .

« لقد صرفت شركات البترول ٦٠ مليونا من الدولارات فى اكولومبيا ابتداء من سنة ١٩١٦ ولم تعثر على قطرة زيت الا فى سنة ١٩٣٦ . »

وصرفت هذه الشركات ٤٤ مليونا من الدولارات فى فنزويلا ولم تحصل على قطرة من الزيت الا بعد مرور ١٥ سنة .

وصرقت هذه الشركات ٣٩ مليوناً من الدولارات في جزر الهند الهولندية وأخيراً عثرت على الزيت . »

وكانت النتيجة الأخيرة التي قررتها هذه الرسالة في هذا الموضوع :

ان رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في أمريكا هو ٧٨ سنتاً .

إذا رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في أمريكا الجنوبية هو ٤٣ سنتاً .

وأن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في البلاد العربية هو ١٠ سنتات .

ان عاصمة إنتاج البترول في العالم قد انتقلت من الولايات المتحدة التي استنزفت آبارها وارتفع سعر الأرض فيها وزادت أجور الأيدي العاملة لأبنائها ، إلى المنطقة العربية التي مازالت آبارها بكراً ، والتي مازالت أراضيها بلا ثمن ، والتي مازالت يدها العاملة تقبل ما دون الكفاف .

ولقد ثبت أن نصف الاحتياطي المحقق من البترول في العالم يوجد تحت أرض المنطقة ، والنصف الباقي موزع بين الولايات المتحدة وروسيا ومنطقة الكاريبي وغيرها من بلاد العالم .

وثبت أيضاً أن متوسط إنتاج البئر الواحد في اليوم من الزيت

هو :

١١ برمبلا فى الولايات المتحدة .

٢٣٠ برمبلا فى فنزويلا .

٤٠٠ برمبلا فى المنطقة العربية .

هل أوضحت مدى أهمية هذا العنصر من عناصر القوة ؟
أرجو أن أكون قد وفقت .

واذن فنحن أقوياء ، أقوياء ليس فى علو صوتنا حين نولول ،
ولا حين نصرخ ، ولا حين نستغيث ، انما أقوياء حين نهدا ، أو
حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل ، وفهمنا الحقيقى
لقوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التى تجعل من أرضنا منطقة
واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن كلها ، ولا يمكن حماية مكان
منها بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة .

هذا عن الدائرة الأولى التى لا مفر من أن ندور عليها وأن
نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا ، وهى الدائرة العربية .

فاذا اتجهت بعد ذلك الى الدائرة الثانية ، وهى دائرة القارة
افريقية قلت دون استفاضة ودون اسهاب . اننا لن نستطيع
بحال من الأحوال - حتى لو أردنا - أن نقف بمعزل عن الصراع
الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق افريقيا بين خمسة
ملايين من البيض ومائتى مليون من الافريقين .

ولسوف تظلّ شعوب القارة تتطلع إلينا ، نحن الذين نحرس
الباب الشمالى للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى
كغلة .

ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى
المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق
الغابة العذراء .

ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا
يستمد ماءه من قلب القارة .

ويبقى أيضا أن السودان - الشقيق الحبيب - تمتد حدوده
إلى أعماق افريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة
فى وسطها .

والمؤكد أن افريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مشين ، وأن
الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوربية يحاول الآن إعادة
تقسيم خريطتها ولن نستطيع بحاول من الأحوال أن نقف أمام
الذى يجرى فى افريقيا ونتصور أنه لا يمسننا ولا يعنيننا .

ولسوف أظل أحلم باليوم الذى أجد فيه القاهرة معهدا
بضخما لأفريقيا يسعى لكشف نواحي القارة أمام عيوننا ويخلق فى
عقولنا وعيا افريقيا مستنيرا ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء
الأرض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها .

ألم تبقى الدائرة الثالثة .. الدائرة التي تمتد عبر قارات
ومحيطات ، والتي قلت انها دوائر اخوان العقيدة الذين يتجهون
معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس الى قبلة واحدة ، وتهمس
شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات .

ولقد ازداد ايماني بمدى الفاعلية الايجابية التي يمكن أن
تترتب على تقوية الرباط الاسلامي بين جميع المسلمين أيام ذهبت
مع البعثة المصرية الى المملكة العربية لتقديم العزاء في وفاة عاقلها
الراحل الكبير .

ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطري تطوف بكل
فاحية من العالم وصل اليها الاسلام ، ثم وجدتنى أقول لنفسي :
- يجب أن تتغير نظرنا الى الحج ، لا يجب أن يصبح
الذهاب الى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد . أو
محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة .

يجب أن تكون الحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع
صحافة العالم الى متابعة انبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع
صورة طريفة لقراء الصحف ، وانما بوصفه مؤتمرا سياسيا دوريا
يجتمع فيه كل قادة الدول الاسلامية ورجال الرأي فيها ، وعلمائها
في كافة أنحاء المعرفة ، وكتابها ، وملوك الصناعة فيها ، وتجارها
وشبابها ، ليضعوا في هذا البرلمان الاسلامي العالمي خطوطا عريضة
لسياسة بلادهم وتعاونها معا ، حين يحين موعد اجتماعهم من
جديد بعد عام .

يجتمعون خاشعين .. ولكن أقوياء ، متجذرين من المطامع ..
لكل عاملين ، مستضعفين لله .. ولكن أشداء على مشاكلهم
وأعدائهم ، حاملين بحياة أخرى.. ولكن مؤمنين أن لهم مكانا تحت
الشمس يتعين عليهم احتلاله في هذه الحياة .

وأذكر أنى قلت بعض خواطرى هذه لجلالة الملك سعود ،
فقال لى الملك :

— ان هذه هى فعلا ، الحكمة الحقيقية من الحجج .
وفى الحق أنى لا أستطيع أن أتصور للحجج حكمة أخرى .
وحين أسرح بخيالى الى ثمانين مليونا من المسلمين فى
اندونيسيا وخمسين مليونا فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو
وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان ، وأكثر
من مائة مليون فى منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليونا داخل
الاتحاد السوفيتى ، وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض المتباعدة —
حين أسرح بخيالى الى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم
عقيدة واحدة ، أخرج بإحساس كبير بالامكانيات الهائلة التى
يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج
عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصيلة بالطبع ، ولكنه يكفل لهم
ولاخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة .

ثم أعود الى الدور التائه الذى يبحث عن بطل يقوم به ..
ذلك هو الدور ، وتلك هى ملامحه ، وهذا هو مسرحه ..
ونحن وحدنا سنجعل « المكان » نستطيع القيام به .

.053
267
d



0570206

الناشر

الدار القومية للطباعة والنشر